اغتراب الإنسان في ظلِّ المدنيّة الحديثة

عماد عبد الرازق*

مقدّمة

لا نبالغ في القول بأنَّ المدنيّة الحديثة قد بلغت شأنًا كبيرًا من التّقدّم والرّقيّ في مجالات الحياة كافّة. هذا التّقدُّم التّكنولوجيّ هو ما نُطلق عليه الحداثة الغربيّة؛ إذ أصبحت سلطة الآلة والعلم هي المسيطرة على جميع مجالات الحياة. في المقابل، قدّمت المدنيّة الحديثة، بمظاهرها التّكنولوجيّة والتّقنيّة، نموذجًا صارخًا للارتباط بالبُعد المادّيّ، والابتعاد عن القِيَم الرّوحيّة؛ ونتج عن ذلك سعي وراء المنفعة واستغلال الشّعوب. من هنا، باتت القِيَم تستمدّ من هذا البُعد المادّيّ، وأصبح الإنتاج والاستهلاك غاية تُطلب في ذاتها، كما أصبح التّقدُّم هو معنى الوجود وقيمته القصوى.

لذلك؛ مثّلت المدنيّة الحديثة في الغرب مستوى فكريًّا يهدف إلى تجاوز جميع الثّوابت الدّينيّة والرّوحيّة والعقديّة، فكان التّقدُّم التّكنولوجيّ والعلميّ جوهرها الذي أحدَثَ ثورة تغيير في المجتمعات الغربيّة، والذي أبعدها عن القِيَم الرّوحيّة، فأصبحت القِيَم تُمثّل شيئًا من الأشياء. وليس ثمّة شكّ في أنَّ الحضارة المعاصرة

* أ. د. عماد الدّين إبراهيم عبد الرّازق - أكاديمي مصري.

قد حقَّقت قدرًا لا بأس به مِنَ النّجاح والتّقدُّم، فلقد استطاعت أن تُلبّي وتُحقّق كلّ ما يحلم به الإنسان من مطالب وحاجات، في ظلِّ هذا التّقدُّم العلميّ والتّكنولوجيّ الذي استطاع أن يسخّر كلّ شيء للإنسان، وأن يجعله سيّدًا للعالم. ومع ذلك؛ ظهرت صيحات تنذر بأنَّ الحضارة تمرُّ بمأزقٍ أو أزمةٍ، كما عبّر «هابرماس» مثلًا. وكذا أعلن «اشفيتسر» (Schfutzer) أنّنا نعيش اليوم في ظلِّ انهيار الحضارة، فيما صرّح «اشبنجلر» (Schpengler) بأنَّ الحضارة تدخل اليوم مرحلة التّداعي، وقد حكم عليها بالموت. فيما أكّد «نيتشه» (Nietzhe) أنَّها تسير إلى الهاوية.

إنَّ الحضارة المعاصرة، في ظلِّ المدنيّة الحديثة والتّكنولوجيا المتقدّمة، أشبه -على حدِّ تعبير «اشفيتسر» (Schfutzer)- بالسّفينة التي نمخر بها في تيّار مليء بالأمواج العاتية تحت شلّال هائل، ولا بُدَّ من مجهودات جبّارة لإنقاذها من المجرى الجانبيّ الخطير الذي سمحنا لها بالانطلاق منه، ومن إعادتها إلى المجرى الرّئيس، إنْ كان ثمَّة أمل في ذلك. وقد قدَّم «هابرماس» (Habermas) تشخيصًا لهذه الأزمة في المجتمع الرّأسماليّ، فقام بدراستها وتحليلها، كما بحث عن مواطن القوّة والضّعف في هذا المجتمع الذي أصبحت السّيادة فيه لعلاقات الإنتاج وقواه، وأصبح الإنسان فيه غير ذي قيمة، ولا وجود حقيقيًّا أصيلًا له. وإزاء سطوة التقّدم التكنولوجيّ، أو ما يُعرف بالمدنيّة الحديثة، شعر الإنسان بنوعٍ من الاغتراب، كما عبّر «ماركس» (Marx)، وقد سمّاه «جورج لوكاتش» (György Lukács) بـ«التّشيّؤ»، وأطلق عليه «هربرت ماركيوز» (Herbert Marcuse) مصطلح «الإنسان ذو البُعد الواحد»، وطرحه «ماكس هوركهايمر» (Max Horkheimer) تحت عنوان نهاية الفرد.

إنّ هذه المفاهيم كلّها تصبُّ في جهةٍ واحدةٍ؛ هي اغتراب الإنسان عن ذاته، في ظلِّ التّقدُّم التّكنولوجيّ، إذ باتت قيمته تُقاس بما ينتجه من سلع وأدوات مادّيّة. وهذه المدنيّة الحديثة جعلت من هيمنة الآلة وسيطرتها الأساس الأوَّل في تقييم النّاس وعلاقتهم بعضهم ببعض. وعليه؛ سادت العقلانيّة الأداتيّة، أو العقل الأداتيّ الذي أدَّى إلى سلب الإنسان قيمته الحقيقيّة، وجعل ما ينتجه من سلع ومنتجات هو المقياس الحقيقيّ لوجوده. وسوف نشير في هذا السّياق إلى موقف عدد من فلاسفة الغرب من المدنيّة الحديثة ومن هذا التّقدُّم التّكنولوجيّ الذي جعل الإنسان ذا بُعد واحد؛ هو البُعد المادّيّ التّقنيّ، ما أدّى إلى اغتراب الإنسان عن ذاته.

«هوركهايمر» ونهاية الفرد (End of Individual)

رأى «هوركهايمر» (Horkheimer) أنَّ الفرد، في ظلِّ التّقدُّم التّكنولوجيّ في المجتمعات الرّأسماليّة أو ما يُعرف بالمدنيّة الحديثة، يعاني من أزمة عميقة؛ وهي اضمحلال أهمّيَّته. وأشار إلى أنَّ النّظام الرّأسماليّ كان في بداية ظهوره يعتمد على مجهود الأفراد الشّخصيّ وأفعالهم المستقلَّة؛ ولذلك كان ثمّة أساس اقتصاديّ قويّ للفرديّة. أمَّا الآن، ومع انتهاء الرّأسماليّة اللّيبراليّة وظهور رأسماليّة الدّولة، فقد اختفى الأساس الاقتصاديّ للفرديّة؛ فلم تعد الرّأسماليّة تعتمد على الأفراد؛ بل على وحدات إنتاجيّة أكبر مثل الشّركات والمؤسّسات. وترتَّب على ذلك ضياع الفرد واغترابه، بسبب سيطرة الآلة والتّقدُّم التّكنولوجيّ، وسطوة المؤسّسات الكبرى على مجالات الحياة.

فالنّظام الرّأسماليّ هو نظام يقضي على شعور الإنسان بذاته؛ لأنَّه يعتمد بصورة أساسيّة على الآلة والتّقدُّم العلميّ[1]، وبتلك الوسيلة يدعو «هوركهايمر» (Horkheimer) الفرد إلى التكيّف مع هذا الوضع الجديد؛ لأنَّه فرض عليه الاندماج في نظم اجتماعيّة لكي يستمرَّ في البقاء، وتحوَّلت قِيَمه من قِيَم تسعى إلى تحقيق الذّات وتشكيل المصير الشّخصيّ وتحقيق الإمكانات الفرديّة من إبداع وابتكار وخَلق، إلى قِيَم تسعى إلى الامتثال للوضع القائم والتّكيُّف معه[2].

إذن، فُرض على الإنسان في المجتمعات الغربيّة التّكيُّف مع هذا الوضع من الاغتراب عن ذاته؛ حتَّى يستمرَّ في البقاء، وتغيَّرت القِيَم طبقًا للوضع الجديد. ويؤكّد «هوركهايمر» (Horkheimer) على الفكرة نفسها، من خلال مفهوم أو مصطلح «خسوف العقل» أو «اضمحلال العقل» (Eclipse of Reason)؛ فالعقل أصبح يتعامل مع المادَّة، واستبدلت عمليَّة اكتشاف المعنى بعمليّة التّدريب على الوظائف. ومع سيادة التّصوُّر الأداتيّ عن العقل، تحوَّلت المَلَكات الذّهنيّة إلى وظائف تتطلَّب الخبير الذي يتخصَّص في جزئيّة صغيرة من العمليّات العقليّة بدلًا من الشّخصيّة الإنسانيّة الكاملة. وبتفتيت العمليّات العقليّة إلى أجزاء، وتحوُّل هذه الأجزاء إلى اختصاصات لخبراء، يجري تشيُّؤ العقل وتحوّله إلى آلة[3].

1- Horkhiemer, Eclipse of Reason, Oxford, 1918, p 238.

2- Horkhiemer, The End of Reason, Oxford, p 182.

3- Ibid, p 132.

في ظلّ هذه المدنيّة الحديثة، نلحظ بوضوح سيطرة الآلة وهيمنتها على كلِّ شيءٍ، وتحوُّل الإنسان إلى شيء من الأشياء، وفقدانه القيمة الحقيقيّة لوجوده الإنسانيّ، وتحوُّل القِيَم الأساسيّة إلى قِيَم مادّيّة.

إنّ في فكرة تشيّؤ الإنسان واغترابه صدًى لِمَا تحدَّث عنه «أدورنو» (Adorno) و«هوركهايمر» (Horkheimer) عن مفهوم «صناعة الثّقافة» أو الثّقافة الجماهيريّة وخداع الجماهير. لقد عدّ «هوركهايمر» (Horkheimer) و«أدورنو» (Adorno) وسائل الاتّصال الجماهيريّ من أدوات النّظام الرّأسماليّ الحديث التي يهيمن بها على المجتمع. ومن هنا، فقد صنّفا الثّقافة الجماهيريّة (Mass culture) جزءًا من النّظام الأيديولوجيّ الذي يعمل على إخضاع وعي الجماهير للسّلطة القائمة والتّسليم بها؛ إذ تعمل السّينما والإذاعة والصّحف والمجلّات على تأكيد القِيَم الثّقافيّة التّقليديّة للمجتمع، وعلى خَلق حاجات جديدة للفرد عن طريق الدّعاية والإعلان، فيحاول إشباعها بمزيد من الانصياع لقواعد اللّعبة؛ وبالتّالي يرتبط بدائرة المجتمع الاستهلاكيّ أكثر فأكثر[1].

من جانبنا، نرى أنَّ هذا أقرب ما يكون لما يجري على أرض الواقع؛ فالسّلطة الحاكمة تحاول أن تستخدم وسائل الإعلام، سواء المرئيّة أو المسموعة، في تشكيل الوعي الجماهيريّ لأفراد المجتمع؛ بل والهيمنة عليه، ما يشعر الفرد بالاغتراب ويضعه في قوالب جامدة، وبالتّالي يلمس بوضوح مصادرة أفكاره، فيبتعد عن ذاته الحقيقيّة ووجوده الأصيل.

عطفًا على الآراء السّابقة، رأى «أدورنو» (Adorno) أنَّ السّيطرة التّكنولوجيّة تتوسَّط جوهر الثّقافة الحديثة، والتي تُعدّ بدورها توسّطًا تكنولوجيًّا مستنزفًا من خلال وسط جماهيريّ. وقد لاحظ أيضًا أنَّ تكنولوجيا الثّقافة لا تنشأ في مجالات أو قطاعات معيَّنة؛ ولكنَّها تعمّ الحضارة ككلّ وفي ضوء الوسط الجماهيريّ. ومن هنا، لا تتحدّث الحضارة إلّا عن صوت واحد متحكِّم هو صوت العقلانيّة التّكنولوجيّة.

نستنتج من ذلك؛ أنَّ التّكنولوجيّا والتّقدُّم العلميّ قد دخلَا في مجالات الحياة الإنسانيّة كافّة، حتّى الحياة الثّقافيّة. وهذا أمر خطير؛ لأنَّ التّدخّل في الحياة الثّقافيّة ووضعها في قوالب معيَّنة يُوقفان عمليّة الإبداع البشريّ.

1- Horkhiemer and Adorno, The Culture Industry, New York, 1973, p 120.

التشيُّؤ عند «لوكاتش» (Lukács) واغتراب الإنسان

أشار «لوكاتش» (Lukács) إلى اغتراب الإنسان عن ذاته وبُعده عنها في مفهومه عن التّشيّؤ، والذي عرَّفه بأنَّه يعني أنَّ على الفرد أن يشبع حاجاته عن طريق تبادل السّلع، وهذا يتطلَّب تنظيم المجتمع كلّه وفاق نموذج علاقاته الاقتصاديّة؛ وبالتّالي تعمّ ظاهرة التّشيّؤ. كما عرّفه أيضًا بأنَّه تحوُّل الصّفات الإنسانيّة إلى أشياء جامدة، غير إنسانيّة. من هنا نجد أنَّ التّشيُّؤ يعني اغتراب الإنسان في ظلِّ العلاقات الرّأسماليّة؛ إذ لم تعد السّلع تُقاس بقيمتها الواقعيّة وإنَّما تتحدَّد بقيمة مجرَّدة يُحدِّدها السّوق.

لذلك؛ يرى «لوكاتش» (Lukács) أنَّ هذه الفكرة؛ أيّ التّشيُّؤ، تُشكِّل نقدًا أخلاقيًّا قويًّا للنّظام الرّأسماليّ وللتّقنيَّة الحديثة، فيجعله نظامًا يُحوِّل البشر إلى أشياء يمكن أن تُباع وتُشترى. وبموجبها، يصبح العالم الاجتماعيّ عالمًا من الأشياء، شأنه في ذلك شأن عالم الأشياء أو العالم الطبيعيّ. لذلك؛ تحوّل المجتمع وأصبح «طبيعة ثانية»، إلى جانب العالم الطّبيعيّ الأصليّ، فبدا كما لو أنَّه مستقلّ عن الفعل الإنسانيّ؛ شأنه في ذلك شأن استقلال قوانين الطّبيعة[1]. وعليه؛ إنّ التّشيُّؤ يُحوِّل الإنسان إلى شيءٍ من الأشياء، وتاليًا تصبح قيمة الإنسان تُقاس بما ينتجه من سلع؛ ما يُشعر الإنسان بالاغتراب وفقدان ذاته.

في هذا السّياق، يستنتج «لوكاتش» (Lukács) أنَّ العقلانيّة أو العقلنة هي التي تُسبِّب ظاهرة التّشيُّؤ. فالعقلنة في مجال العمل، كما يرى «لوكاتش» (Lukács)، هي توسيع للتّشيُّؤ[2]. وبناءً على ذلك؛ يصبح الإنسان جزءًا من الآلة، وتُقاس قيمته الحقيقيّة بما ينتج من سلع وأدوات، فتنشأ ظاهرة تشيُّؤ الإنسان واغترابه عن ذاته، وفقدانه للقِيَم الحقيقيّة.

نلفت الانتباه إلى حقيقة مُهمّة، وهي أنَّ «لوكاتش» (Lukács) يؤكّد أنَّ التّشيُّؤ يصيب نظرة النّاس إلى مجتمعاتهم؛ إذ ينظرون إلى المجتمع على أنَّه محكوم بقوانين طبيعيّة ثابتة لا تتغيَّر؛ لكنَّها في الحقيقة قوانين خاصّة بفترة تاريخيّة معيَّنة، وهي فترة سيادة أسلوب الإنتاج الرّأسماليّ في ظلِّ التّقنيَّة الحديثة أو المدنيَّة

1- إيان كريب، النّظريّة الاجتماعيّة من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمّد حسين غليوم، عالم المعرفة، الكويت، العدد(244)، 1999، ص 310.

2- Lucks, History and class consciousness. London, 1971, p 112.

الحديثة[1]. وما يُسمَّى عند «لوكاتش» (Lukács) بظاهرة التّشيُّؤ يُسمَّى عند «ماركس» (Marx) صنميّة السّلع، والتي تدور في إطار تحوُّل البشر وأفعالهم إلى سلع تُباع وتُشترى، وشعور الإنسان بالاغتراب عن ذاته، وفقدان الشّعور الحقيقيّ بالقِيَم المعنويّة.

«ماركس» (Marx) وفتشيّة السّلع (Fetchism)

تنطلق فكرة فتشيّة السّلع عند «ماركس» (Marx) من رؤيته أنَّ أسلوب المجتمع الرّأسماليّ هو أسلوب ونظام منتج للسّلع مثل كلّ التّنظيمات الاقتصاديّة، وكلّ تفاصيل عمليّة الإنتاج في النّظام الرّأسماليّ تهدف إلى غاية موحّدة، وهي إنتاج السّلع. وعلى الرّغم من أنَّ السّلع هي نتاج العمل البشريّ، إلّا أنَّها بمجرَّد دخولها في علاقات تبادل في السّوق، مع غيرها من السّلع الأخرى، يصبح لها قوانينها الخاصّة التي تُسمَّى بقوانين السّوق مثل العرض والطّلب؛ وبذلك تستقلّ عن أصلها البشريّ والاجتماعيّ وينشأ كيانها الخاصّ[2].

بناء عليه، إنَّ صنميّة السّلع هي ظاهرة تسود فيها قوانين السّوق وتبادل السّلع، فتصبح هذه القوانين مسيطرةً على المجال البشريّ. ولا يقتصر الأمر على ذلك، كما يرى «ماركس» (Marx)؛ لأنَّ إنتاج السّلع يصبح هو ما يُنظّم علاقات الأفراد بعضهم البعض، ويُنظِّم علاقاتهم بالمجتمع، وبذلك تأخذ الطّابع الصّنميّ. كما أنَّ طاقة العمل البشريّ تُقاس بمدى قدرتها على إنتاج سلع في فترة زمنيَّة محدَّدة ومعيَّنة، وتتحدَّد قيمة العمل بقيمة ما يُنتج من سلع، وهذا يؤدِّي إلى تشيُّؤ العلاقات الاجتماعيّة؛ فالعلاقات بين المنتجين، والتي هي في الأصل علاقات اجتماعيّة، تظهر على أنَّها علاقات بين منتجات عملهم، وتحكمها قوانين اقتصاديّة[3].

إذن، فصنميّة السّلع تُحدِّد العلاقات الاجتماعيّة بين الأفراد، وتطبعها بطابع سلعيّ مُحدَّد، وتسيطر على مجالات الحياة كافّة، وتصيب الوعي الإنسانيّ بالتّشيُّؤ،

1- Lucks, op. cit., p 172.

2- كارل ماركس، رأس المال، ترجمة فالح عبد الجبّار وآخرين، المجلَّد الأوّل، الجزء الثّاني، دار التقدّم، موسكو، ص 108.

3- المصدر نفسه، ص 110.

فتصبح قيمة الإنسان تُقاس بما ينتجه من سلع وخدمات. وعليه؛ يتحوَّل الإنسان إلى شيءٍ من الأشياء، ويفقد وجوده الحقيقيّ.

إلى جانب فكرة فتشيّة السّلع أو صنميّة السّلع، برز مفهوم الاغتراب الإنسانيّ عند «ماركس» (Marx)، والذي يدور في نفس فكرة صنميّة السّلع. إنّ مفهوم الاغتراب يتحدَّد في افتراض وجود سمات معيَّنة للحياة الإنسانيّة، ويحدث الاغتراب، بشكل عامّ، حينما تسيطر على الإنسان البيئة الاجتماعيّة التي خَلَقها بيده. ومن هنا، وفاق «ماركس» (Marx)، تحدث هذه الظّاهرة بصفة خاصّة في المجتمع الرّأسماليّ؛ أي في ظلِّ التّقدُّم التّكنولوجيّ أو المدنيّة الحديثة؛ حيث ينفصل البشر ولا يسيطرون على ما ينتجون، وينفصل بعضهم عن بعض، وتفقد جماعيّة العمل معالمها[1].

في هذا السّياق، يشير «ماركس» (Marx) إلى أنَّ البشر، طبقًا لظاهرة الاغتراب، لا يسيطرون أيضًا على ناتج عملهم، ويفقدون قدرتهم على اتّخاذ القرارات؛ بل يبدو كما لو أنَّهم مجبرون على العمل من قِبَل أُناس آخرين؛ فيصبحون دمى للنّظم الاجتماعيّة التي صنعوها بأيديهم[2]. ويقارب فكرة الاغتراب وصنميّة السّلع عند «ماركس» (Marx) مفهوم «هربرت ماركيوز» (Herbert Marcuse) عن الإنسان ذي البُعد الواحد.

«ماركيوز» (Marcuse) والإنسان ذو البُعد الواحد

إنّ الأطروحة الأساسيّة عند «ماركيوز» (Marcuse) في الإنسان ذي البُعد الواحد تنبثق مِنَ التّفاقم اللّامحدود لسلطة الآلة في المجتمعات الصّناعيّة المتقدّمة. فيرى «ماركيوز» (Marcuse) تحوُّل الإنسان، في ظلّ هذا التّقدُّم التّكنولوجيّ، إلى بُعدٍ واحدٍ يُمثِّل البُعد التّقنِيّ وسلطة الآلة، فتفرز الأخيرة نمطًا من العلاقة بين الفرد والمؤسّسات تتحكّم بتنظيمه الاجتماعيّ ووجوده اليوميّ، وتجعل وعيه يتموضع في نقطة محدودة وموجَّهة نحو الهدف الذي ترسمه الدّولة ومؤسّساتها[3].

بناءً على ذلك؛ نرى أنَّ سلطة الآلة طغت على كلِّ شيء في المدنيّة الحديثة؛ أي

1- إيان كريب، مرجع سابق، ص 298.

2- المرجع نفسه، ص 299.

3- Marcuse H, One Dimensional Man, Beacon press, 1966, p 158 .

المجتمعات المتقدّمة تقدّمًا تكنولوجيًّا كبيرًا، وحدَّدت مجالات الإنسان وأهدافه، وتحوَّل الإنسان في ظلِّها إلى بُعدٍ واحدٍ وجانب واحدٍ هو الجانب التّقنيّ العلميّ التّكنولوجيّ. وفي هذا السّياق، تحدَّث «ماركيوز» (Marcuse) عن وسائل السّيطرة والهيمنة الجديدة للدّولة ومؤسّساتها داخل المجتمعات الرّأسماليّة المتقدّمة تقدُّمًا تكنولوجيًّا كبيرًا، وهيمنة الآلة الصّناعيّة الكبرى، والاتّجاه الاستهلاكيّ السّاحق الذي نجح في نزعه من الذّوبان داخل تيّاره المُتمكِّن، بحيث أصبح الإنسان في ظلِّهِ خاضعًا لقوانين الإنتاج، تتحدَّد قيمته بقوانين السّوق والسّلع[1].

لقد كشف «ماركيوز» (Marcuse)، في كتابه «الإنسان ذو البُعد الواحد»، عن تلك الظّاهرة التي تُمثِّل تشيُّؤ الإنسان واغترابه. فسلطة الدّولة أصبحت أكثر اتّساعًا، وكما أصاب التّطوّر العلم والتّكنولوجيا ووسائل الإنتاج، حدث تقدُّم مماثل في إدارة الدّولة وفي قدرتها على الإنتاج. ولقد عمل التّقدُّم الصّناعيّ الحديث على تشويه طبقتَي البروليتاريا والبورجوازيّة وإفساد العلاقة بينهما[2]. وبات من الواضح أنَّ الإنسان أصبح، في ظلِّ المدنيّة الحديثة، ذا بُعدٍ وجانب واحد هو البُعد التّقنيّ المادّيّ، فبدأ يشعر باغتراب عن ذاته، وفقدانه لقِيَمه الأصليّة. وأصبحت قيمة الإنسان تُقاس بما يُنتجه من سلع وخدمات وباتت القوانين الاقتصاديّة تتحكَّم في العلاقات الاجتماعيّة للبشر. وهنا حدث تشيّؤ واغتراب في العلاقات الاجتماعيّة بين أفراد البشر.

كما لاحظ ماركيوز (Marcuse) أنَّ التّقدُّم التّكنولوجيّ قد قضى على أيّ إمكانيَّة لتشكيل وعي جماعيّ للبروليتاريا، وإحساسهم بوحدة الهدف. فالرّأسماليّة الحديثة تعتمد على الآلة في الإنتاج، ما يؤدّي إلى عدم وضوح عنصر الاستغلال الذي يمارسه رأس المال على العامل، كما يعزل في الوقت نفسه العمَّال عن بعضهم البعض، ويعدم إمكانيّة الاتّصال بينهم[3].

وعليه؛ نرى أنَّ الإنسان في ظلِّ المدنيّة الحديثة والتّقدُّم التّكنولوجيّ يعيش أزمة حقيقيّة، هي الشّعور بالاغتراب والبُعد عن ذاته؛ بل فقدانه للقِيَم الأصيلة في ظلِّ

1- علاء طاهر، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس، منشورات مركز الإنماء القوميّ، بيروت، ص 73.

2- ماركيوز، الإنسان ذو البُعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، 1971، ص 66.

3- المرجع نفسه، ص 56.

السّيطرة التّكنولوجيّة على جميع مجالات الحياة، حتّى العلاقات الإنسانيّة. لذلك؛ يشعر أفراد المجتمعات المتقدِّمة تكنولوجيًّا وعلميًّا بالاغتراب عن ذواتهم، وبأنَّ القوانين الاقتصاديّة تتحكَّم في كلِّ شيء، وبأنَّ قدراتهم الإبداعيّة تتموضع وتوضع في قوالب معيَّنة لا يستطيعون الانفكاك والتّحرُّر منها. وهذا ما خلق أزمة حقيقة يحاول أفراد تلك المجتمعات الخروج منها، أو على الأقلّ يحاولون خلق توازن بين تلك القوانين الاقتصاديّة والقوانين البشريّة الإبداعيّة؛ وذلك في سبيل إعادة تشكيل الذّات الإنسانيّة وفاقًا للقِيَم المعنويّة، وليس القيم المادِّيّة فقط.

«هابرماس» وظاهرة الهيمنة التّكنولوجيّة والعقل الأداتيّ

لقد قدَّم «هابرماس» (Habermas) تشخيصًا دقيقًا لأزمة المجتمع الرّأسماليّ المتقدِّم، فدرس تلك الأزمة وحلّلها، كما بحث عن مواطن القوّة والضّعف في هذا المجتمع الذي أصبحت السّيادة فيه لعلاقات الإنتاج وقواه؛ والذي شعر الإنسان فيه بالاغتراب والبُعد عن ذاته. وقد ركّز «هابرماس» (Habermas) على ظاهرة الهيمنة التّكنولوجيّة أو التّقنيّة، وظاهرة العقل الأداتيّ (Instrumental Reason) السّائد في ظلِّ النّظام الرّأسماليّ المتقدِّم. وفي معرض تحليله للمجتمعات الرّأسماليّة، أشار «هابرماس» (Habermas) إلى تدخّل الدولة، وكذلك إلى هيمنتها على الاقتصاد، وهو ما يؤدِّي إلى أزمة في نظره. كما رأى «هابرماس» (Habermas) أنَّ أزمة التّفكير السّائدة في هذه المجتمعات الرّأسماليّة تتمثّل في ما يُسمَّى بالتّفكير الأداتيّ أو التّقنِيّ، والذي يرفع من شأن الآلة على حساب الإنسان. كما أنَّ العقلانيّة السّائدة في ظلِّ هذا النّظام، والتي تُعرف بالعقلانيّة التّكنولوجيّة، أدّت إلى شعور الإنسان بالاغتراب والبُعد عن ذاته.

بعد تحليل «هابرماس» (Habermas)، بعمق، الأزمة في المجتمعات الرّأسماليّة، خلص إلى أنَّها تنشأ في النّسق الاجتماعيّ؛ لأنَّ النّسق يسمح ويُجيز إمكانات أقلّ وغير كافية لحلِّ مشكلات التّكامل الاجتماعيّ[1]. كما أشار إلى أنَّنا يجب أن نتحدَّث عن الأزمة من خلال العلاقة بين تكامل النّسق والتّكامل الاجتماعيّ؛ فالتّكامل الاجتماعيّ يتعلَّق بأنساق العادات والتّقاليد والأعراف التي ترتبط بها الذّوات الاجتماعيّة من النّاحية الاجتماعيّة، أمَّا تكامل الأنساق

1- Habermas, Legitimation Crisis, London, 1976, p 2.

الاجتماعيّة فتحصل رؤيتها كعوامل للحياة اليوميّة، يجري تشييدها وبناؤها بصورة رمزيّة[1]. ثمّ يتطرَّق «هابرماس» (Habermas) إلى الحديث عن الأزمات التي تظهر في المجتمع الرّأسماليّ، ويرى أنَّ هذه الأزمات تظهر في صورة مشكلات اقتصاديّة. لذلك؛ تكون الأزمات في تلك المجتمعات الرّأسماليّة اللّيبراليّة متوطّنة، بسبب مشكلات التّوجيه التي لم تُحلّ. ويحدث كلّ هذا لأنَّ عمليّات التّطوّر الاقتصاديّ المتعاقبة تشكّل خطرًا على التّكامل الاجتماعيّ. ثمّ يستعرض بعد ذلك أدوات التّوجيه في المجتمع الرّأسماليّ؛ أي العناصر المسيطرة في هذا المجتمع، والتي تؤدّي إلى اغتراب الفرد عن ذاته، فيشير إلى السّوق (Market) بوصفه عنصرًا من العناصر المسيطرة، ويرى أنَّ السّوق يقوم بوظيفتَين:

الأولى: أنَّه وسيلة وأداة توجيه في نظام العمل الاجتماعيّ، يتحكَّم فيه ويسيطر عليه بواسطة النّقود.

الثّانية: يوطّد العلاقة بين من يمتلكون وسائل الإنتاج والعمّال الذين يعملون بالأجر[2].

في هذا السّياق، رأى «هابرماس» (Habermas) أنَّ الرّأسماليّة الحديثة تتميَّز بهيمنة الدّولة على الاقتصاد وعلى مجالات الحياة الاجتماعيّة الأخرى، وأنَّ شؤون الحياة العامّة لم يعد يُنظر إليها على أنّها مجال للنّقاش والاختيار؛ بل باتت تُعدّ مشكلات تقنيّة يحلّها خبراء يستخدمون في عملهم تقنيّة أداتيّة[3]. ومن هنا، تمتاز الأزمة الاقتصاديّة في المجتمعات الرّأسماليّة بأنَّها تتميَّز بسلطة التّقنيّة وعقلانيّة أداتيّة تسيطر على جميع مجالات الحياة؛ لذلك يشعر الفرد بالاغتراب والبُعد عن ذاته.

1. سلطة التّقنيّة وعالم الحياة:

يتحدَّث «هابرماس» (Habermas) في هذه المفهوم عن سيطرة التّقنيّة وهيمنتها على الواقع المعيش؛ أي عالم الحياة الاجتماعيّة، وكيفيّة تغلغلها وسيطرتها على جميع مجالات الحياة الاجتماعيّة، حتّى امتدادها إلى الإنسان. ومن ثمّ فإنّه يُعرّف علم الحياة أو الواقع المعيش (Life-world) بأنَّه الإطار العامّ الذي يجري

1- Habermas, Legitimation Crisis, p 4.

2- Ibid, p 25.

3- إيان كريب، مرجع سابق، ص 355.

فيه تبادل العلاقات الاجتماعيّة بين الأفراد من خلال فعل التّواصل بهدف الوصول إلى الفهم[1]. وقد لفت «هابرماس» (Habermas) الأنظار إلى حقيقة مُهمّة في كتابه «العلم والتّقنيّة كأيدولوجيا»، أنَّه بقدر تغلغل التّقنيّة في مجالات الحياة الاجتماعيّة بقدر ما يترتَّب على ذلك من تغيير في المؤسّسات الاجتماعيّة ذاتها، وأيضًا بقدر ما تتقوَّض الشّرعيّة القديمة تحلّ محلّها شرعيّة حديثة[2].

وعليه؛ نلحظ اعتراضًا واضحًا من «هابرماس» (Habermas) على تغلغل التّقنيّة في جميع مجالات الحياة، وما يترتّب عليه من شعور الإنسان بالاغتراب؛ لأنَّه فَقَدَ وجوده الحقيقيّ، وأصبحت قيمته تُقاس بما يُنتجه من سلع. ولكن يجب أن نلفت الانتباه إلى حقيقة مُهمَّة، وهي أنَّ رفض «هابرماس» (Habermas) للتّقنيّة الحديثة لا يعني أنَّه يستبعدها تمامًا من الحياة؛ بل يريدها أن تعمل إلى جانب شعور الإنسان بذاته؛ إنّه يؤكد فقط على كبح جماح تغلغل تلك التّكنولوجيا في مجالات الحياة. من هنا، يرى أنَّ التّطوّر التّكنولوجيّ يخضع لمنطق يتبع بُنية الفعل العقلانيّ الموجَّه نحو الهدف والخاضع لمراقبة النّجاح؛ أي أنَّه يتبع بنية العمل، وطالما أنَّ تنظيم الطّبيعة الإنسانيّة لا يتغيَّر، فإنَّنا ينبغي أن نحافظ على حياتنا من خلال العمل الاجتماعيّ وبمساعدة الأدوات[3].

ثمّ ينطلق «هابرماس» (Habermas) من فكرة سيطرة التّقنيّة وهيمنتها على عالم الحياة إلى نقد فكرة العقل الأداتيّ الذي أدَّى إلى شعور الإنسان بالاغتراب والبُعد عن ذاته. فالعقل الأداتيّ، بوجه عامّ، هو منطق في التّفكير وأسلوب في العالم يحكم العلوم الطّبيعيّة والعلوم الاجتماعيّة، وهو المسيطر على التّفكير في المجتمع الصّناعيّ المتقدِّم، وبه يخضع الإنسان للتّكنولوجيا خضوعًا تامًّا. وقد نَقَدَ «هابرماس» (Habermas) مفهوم العقل الأداتيّ، وكذلك مفهوم العقلانية الأداتيّة. لذلك؛ يذكر أنّ عمليّة التّحديث في الغرب أدَّت إلى زيادة في العقلانية الأداتيّة، وإلى التّوسّع في نطاق الفعل الأداتيّ في مجال الاقتصاد، والإدارة والعلم

1- Habermas, Legtimation crisis, p 39.

2- فتحي أبو العينين، هابرماس وتحرير الوعي الاجتماعيّ، مجلّة إبداع، العدد الخامس، مايو، 1998، ص 69.

3- Habermas, Science and Technology AS Ideology, Beacon press, 1974, p 132.

والتّكنولوجيا على حساب العقلانيّة التّواصليّة في المجال الاجتماعيّ[1]. إذن، نستنتج أنَّ «هابرماس» (Habermas) ليس معجبًا مثل غيره بالتّقدُّم في المجتمعات الصّناعيّة الكبرى؛ لأنَّ هذا التّقدُّم أدَّى إلى سيطرة التّكنولوجيا وهيمنتها على مجالات الحياة كافّة، وحوَّل الإنسان إلى أداة ووسيلة للإنتاج، وأصبحت الشّرعيّة مستمدَّة منه مثل الآلة.

وعليه؛ رفض «هابرماس» (Habermas) التّقدُّم التّكنولوجيّ الذي يكون على حساب التّواصل بين أعضاء المجتمع، وأشار إلى أنَّه مع تزايد التّقدُّم في العلم والتّكنولوجيا أصبح العلم ذاته قوَّة الإنتاج الجديدة، وأصبحت الشّرعيّة مستمَدَّة منه. مضيفًا بما أنَّ القوّة التي كانت تمارس بطريقة غير مباشرة على عمليّة التّبادل في رأسماليّة القرن التّاسع عشر أصبحت الآن تعمل في ظلِّ السّيطرة السّياسيّة لتتحكّم الدولة بمواطنيها، فلا يمكن أن تُستمدّ الشّرعيّة الآن من علاقات الإنتاج ذات النّظام غير السّياسيّ[2].

وبما أنّ التّقدُّم التّقنيّ العلميّ قد طغى على كلّ شيء، وسيطر على مجالات الحياة، رفض «هابرماس» (Habermas) هذا الطّغيان التّكنولوجيّ ودعا إلى مجتمع جديد يقوم على التّواصل. فقد رأى أنَّ التَّقدم العلميّ والتّكنولوجيّ أصبح الأيدولوجيا الجديدة، وقد صاحب هذا الدّور الأيديولوجيّ للعلم والتّكنولوجيا وعي تكنوقراطيّ؛ أي حكومة (الفنيّين)، وهذا الوعي يعمل على حلِّ القضايا الاجتماعيّة على أنَّها مسائل تحلّ بنمط أداتيّ؛ أي بوسائل تقنيّة، كما صاحبه عزل الجماهير عن عمليّة اتّخاذ القرار.

بناءً على كلّ ما سبق، ينتقد «هابرماس» (Habermas) العقلانيّة التّكنولوجيّة التي تسيطر على جميع مجالات الحياة الاجتماعيّة المعاصرة، والتي أضحى الإنسان في ظلِّها شيئًا من الأشياء، وشعر بالاغتراب وعدم إحساسه بوجوده. فقد أشار في كتابه «العلم والتّكنولوجيا كأيدولوجيا» إلى أنَّ العقلانيّة التّكنولوجيّة قد أدَّت دورًا مهمًّا في المجتمعات الرّأسماليّة الغربيّة، وسيطرت على جميع مجالات الحياة الاجتماعيّة، فأصبح كلّ شيء في المجتمع الرّأسماليّ خاضعًا للتّقدُّم العلميّ

1- إيان كريب، مرجع سابق، ص 366.

2- Habermas, Legtimation Crisis, p 36.

والتّكنولوجيّ[1]. ويُقرُّ «هابرماس» (Habermas) أنَّ العلم والتّكنولوجيا قد تعاظما إلى درجة خلقا أهمّ قوّة إنتاجيّة، وبالتّالي صارت علاقتهما بالممارسة الاجتماعيّة وبعالم الحياة المعيشة محلّ تساؤل؛ فالقوى الجديدة لسلطة التّقدُّم التّقنيّ المتزايدة تظهر نوعًا من عدم التّلاؤم بين نتائج عقلانيّة غايتها التّوتّر، وبين أهداف لا رؤية فيها، وأنساق قيميّة جامدة، وأيديولوجيّات واهية.

من جانبنا، نشير إلى أنَّ العقلانيّة مرادفة للتّقدُّم العلميّ والتّكنولوجيّ في المجتمع الرّأسماليّ الغربيّ، ويرفضها «هابرماس» (Habermas) بهذا المعنى؛ فهو يرفض مفهوم العقل الأداتيّ وينتقد سيطرته وهيمنته على مجالات الحياة كافّة. إنّنا نرى أنّ العلم والتّكنولوجيا في المجتمعات الغربيّة يُمثّلان الأيدولوجيا المتحكِّمة في العلاقات الاجتماعيّة، وقد أصبحت قوانين الإنتاج هي القوانين الحاكمة والمسيطرة على كلّ العلاقات الاجتماعيّة، كما بات الإنسان خاضعًا لقوانين العرض والطّلب، كما السّلع. وقد رفض «هابرماس» (Habermas) تلك العقلانيّة التّكنولوجيّة، ورفض تحوّل الإنسان إلى شيء من الأشياء، وفقدانه لذاته، وابتعاده عن وجوده الحقيقيّ، ودعا إلى فعل التّواصل الذي يعيد الإنسان إلى ذاته، ويشعر بقِيَمه الرّوحيّة.

2 . الفعل التّواصليّ ودوره في بناء العلاقات الإنسانيّة السّويّة:

لقد أكَّد «هابرماس» (Habermas) على أهمِّيّة الفعل التّواصليّ ودوره في بناء العلاقات الإنسانيّة السّويّة، وفي تحقيق الانسجام والتّفاهم بين أفراد المجتمع، وكذلك في البُعد عن الاغتراب الإنسانيّ وتحقيقه لذاته الحقيقيّة التي سيطرت عليها التّكنولوجيا والمدنيّة الحديثة. من هنا، يشير «هابرماس» (Habermas) إلى أنَّ الفعل التّواصليّ هو وسيلة تفاعل المشاركين، تسخدم اللّغة فيه أداة ووسيلة للوصول إلى الفهم والإجماع العامّ حول دعاوى الصّحّة العامّة أو الصّدق[2]. كما يؤكّد أنَّ الفعل التّواصليّ هو أكثر عقلانيّة من الأفعال الأخرى؛ لأنَّه ينشأ عن أفعال الكلام التي تُقرّر دعاوى الصّحّة العامّة. ويستخدم المشاركون في فعل التّواصل اللّغة لتفسير المواقف المتبادلة وفَهمها، وكذلك لتفسير الأهداف والغايات الشّخصيّة[3].

1- Habermas, Science and Technology as Ideology, p 144.

2- Habermas, The Theory of Communication of Action, Boston press, 1981, p 328.

3- Ibid, p 329.

يجدر الانتباه إلى حقيقة مهمّة، وهي أنَّ أيّ مشارك أو شخص يعمل بطريقة تواصليّة يجب أن يثير دعاوى صحّة عامّة، ويفترض أن تكون هذه الدّعاوى مسوَّغة؛ أي مرفقة بالحجّة والبرهان. وتتمثَّل هذه الدّعاوى في:

أ - أن يكون منطوق المتحدّث (Utterance) شيئًا مفهومًا.

ب - أن يُقدِّم المتحدِّث شيئًا يمكن للمستمع أن يفهمه.

ت - أن يجعل المتحدِّث نفسه بالتّالي ممكن الفهم.

ث - أن يصل المتحدِّث إلى تفاهم مع الآخرين المشاركين معه في فعل التّواصل[1].

بناءً على ذلك؛ على المتحدِّث أن يختار تعبيرًا مفهومًا حتَّى يتمكَّن المستمع من فهمه. ويجب أن يمتلك هدفًا واضحًا ومُحدَّدًا؛ هو أن يوصل قضيّة صادقة وعبارات صادقة حتّى يستطيع المستمع فهمها، والاندماج تاليًا في فعل تواصليّ مثمر، يبتعد من خلاله عن الهيمنة والسّيطرة. وهذا التّفاعل والمشاركة بين أفراد المجتمع، باستخدام الفعل التّواصليّ، يُجنّب المجتمع الاغتراب والبُعد عن الذّات؛ وهو ما كان هدف «هابرماس» (Habermas) من فعل التّواصل.

في هذا السّياق، يشير «هابرماس» (Habermas) إلى أنَّ هدف الوصول إلى فهم بين المستمع والمتحدِّث هو تحقيق الإجماع أو الاتّفاق، هذا الاتّفاق بين المشاركين في فعل التّواصل يساعدهم في فهم بعضهم البعض بصورة متبادلة (Mutual)، كما يساعدهم على تكوين ثقة متبادلة[2]. وقد أكّد «هابرماس» (Habermas) على أنَّ الاتّفاق الذي يجري التّوصل إليه بين المشاركين في فعل التّواصل بطريقة عقليّة يعتمد على إقرار المشاركين وموافقتهم أو رفضهم لدعاوى الصّحّة العامّة؛ لأنَّ هذه الدّعاوى تكون قابلة للشّكّ أو الانتقاد[3].

وعليه؛ يرى «هابرماس» (Habermas) أنَّ الفعل التّواصليّ في جوهره يهدف إلى تحقيق التّفاهم والتّعاون بين الأطراف المشاركة؛ لأنَّ هدفه الحقيقيّ والجوهريّ هو الوصول إلى تفاهم واتّفاق بين المشاركين، وتفسير المواقف المختلفة التي تجمع بينهم. وبالتّالي، فإنَّ أيّ مشارك في فعل التّواصل حينما يتواصل مع

1- محمود سيّد أحمد، البراجماطيقا، دار الحضارة للطباعة والنشر، 1994، ص 34.

2- Habermas, communication and Evolution of society, London, 1979, p 3.

3- Habermas, The Theory of communication of Action, p 127.

الآخرين، فإنَّه يملك سلسلة من الكلّيّات البراجماطيقيّة التي تساعد على التّواصل[1]. تلك الكلّيّات البراجماطيقيّة تتضمَّن فروضًا عدَّة، لعلَّ من أهمّها:

أوَّلًا: أن يكون للمتكلّم قدرة على التّواصل مع عالم الموضوعات ومع عالم الذّوات الأخرى.

ثانيًا: هذه القدرات تفترض أن يكون المتكلّم بارعًا في استخدام الأسماء الشّخصيّة ومشتقّاتها، وتعبيرات الزّمان والمكان، وكذلك الأفعال القصديّة[2].

وقد ميَّز «هابرماس» (Habermas) بين الفعل التّواصليّ الذي يُحقّق التّفاهم بين المشاركين، وبين الفعل الأداتيّ الذي يهدف إلى تحقيق الرّغبات والأهداف الشّخصيّة. إذ يرى أنَّ الفعل التّواصليّ يُمثّل الاستخدام الحقيقيّ والأصليّ للُّغة، بينما الفعل الأداتيّ يُمثّل الاستخدام الثّانويّ لها[3]. ويؤكّد «هابرماس» (Habermas) أنَّه باعتماد فعل التّواصل، أو الفعل التّواصليّ، يتبنّى المشاركون مواقف مختلفة تُجاه العالَم الخارجيّ الواقعيّ. وهذه المواقف تتمثَّل إمَّا في تعديل الواقع أو التّكيّف معه. وعلى هذا، ينظر «هابرماس» (Habermas) إلى فعل التّواصل على أنَّه يُمثّل شكلًا من أشكال التّفاعل الاجتماعيّ التي تحقّق ذوات المشاركين، ولا يشعرون معها بالاغتراب؛ لأنَّها تحقّق تناغمًا واتّساقًا في أهداف المشاركين وغاياتهم، وهذا التّناسق والتّناغم إنّما يحصل باستخدام اللّغة، للوصول إلى اتّفاق عامّ[4].

إذن، الفعل التّواصليّ هو فعل يُحقّق التّفاهم والاتّفاق بين المشاركين فيه؛ لذلك يشعر جميع المشاركين بوجودهم الحقيقيّ وتحقيق ذواتهم، كما يُبعدهم عن أيّ شكلٍ من أشكال السّيطرة والهيمنة. وعليه؛ فإنّه يُحقّق الغاية السّامية التي يسعى إليها المشاركون؛ وهي الوصول إلى التّفاهم والانسجام والإجماع في ما يتعلَّق بدعاوى الصّحّة.

لقد عبَّر «هابرماس» (Habermas) عن المواقف التي يتبنَّاها المشاركون في فعل التّواصل بثلاثة مواقف أساسيّة:

1- Thompson, Habermas, Critical Debates, Cambridge, 1986, p 127.

2- Ibid, p 127.

3- Rasmussen, Reading Habermas, New York, 1990, p 37.

4- Maeve Cook, Language of Reason, Cambridge, 1994, p 10.

أوّلًا: الموقف الموضوعيّ: ويمثّل موقف الفاعل تُجاه الواقع المعيش، والذي يتمثَّل في موضوعات التّجربة الواقعيّة، ويُسمَّى أيضًا الموقف التّجريبيّ.

ثانيًا: الموقف الذّاتيّ: ويُعبّر عن مقاصد شخصيّة المشارك وأهدافه في فعل التّواصل.

ثالثًا: الموقف الاجتماعيّ: يُمثّل موقف المشارك تُجاه القيم والمعايير الاجتماعيّة.

بناء على ما سبق، يُحقّق الفعل التّواصليّ بين المشاركين التّعاون والتّفاهم والاتّفاق العامّ؛ ولذلك يحقّق ذاتيّة كلّ مشارك وأهدافه، ويُحقّق الوجود الأصليّ الحقيقيّ للمشاركين، ويُبعدهم عن الاغتراب والسّيطرة والهيمنة التي كانت في ظلِّ التّقنيّة الحديثة.

ثمّ يعرج «هابرماس» (Habermas) للحديث عن أُسس التّواصل، والتي تُمثّل مبادئ عامّة وكلّيّة، لو تحقَّقت لأسّست لوجود تواصل حقيقيّ بين أعضاء المجتمع ككلّ. ولعلَّ من أهمّ تلك الأُسس العامّة في التّواصل:

أ . عقلانيّة التّواصل (Communication Rationality):

تشير عقلانيّة التّواصل، كما يرى «هابرماس» (Habermas)، إلى إمكانيّة العقلانيّة الكامنة في الممارسات اللّغويّة لدى المشاركين في فعل التّواصل. وتتميّز هذه الإمكانيّة بمبادئ مثاليّة محدَّدة، وبذلك تكون أداة توجيه للفعل التّواصليّ في المجتمعات الحديثة، وهذا يجري في نطاق التّواصل اليوميّ الذي يكون مرتبطًا بالصّدق. وبالتّالي، استنتج «هابرماس» (Habermas) أنَّ مفهوم عقلانيّة التّواصل تقوم على العلاقة بين أفعال الكلام، بوصفها أصغر وحدة من التّواصل اليوميّ، والأنواع المختلفة من دعاوى الصّحّة التي تكون مرتبطة دائمًا بتحقيق الاتّفاق بين المشاركين في فعل التّواصل[1]، وقد عدّها من أُسس التّواصل التي تحقّق فعلًا تواصليًّا ناجحًا بين المشاركين.

ب . الكفاءة التّواصليّة (Communication Competence):

يرى «توماس مكارثي» (Tom McCarthy)، وهو أحد شرّاح فلسفة «هابرماس» (Habermas)، أنَّ الكفاءة التّواصليّة تمثّل النّزعة اللّغويّة في فلسفة «هابرماس» (Habermas). وقد عرَّف «هابرماس» (Habermas) الكفاءة

1- Maeve cook, op. cit., p 131.

التّواصليّة بأنّها حدوث التّواصل وفاقًا لنسق القواعد الأساسيّة الذي يفهمه الأشخاص الرّاشدون، إلى المدى الذي يُمكِنهم من تحقيق الشّروط المواتية والملائمة لتوظيف ملائم للجمل في تعبيراتهم، بغضّ النّظر عمّا يحيط بالتّعبير من سياقات عرضيّة[1].

وعليه؛ نستنتج أنَّ الكفاءة التّواصليّة تُمثِّل القدرة اللّغويّة على استخدام جمل في سياقات لغويّة معيّنة. فهي تُمثّل قدرة لغويّة تحقّق، في المقام الأوّل، التّفاهم والتّواصل بين المشاركين في فعل التّواصل بدون أيّ سيطرة أو هيمنة لغويّة من جانب أحد الأشخاص على الأطراف الأخرى، وتاليًا يُحقّق المشاركون ذواتهم الحقيقيّة دون الإحساس بالاغتراب.

صفوة القول

إنَّ السّيطرة التّقنيّة والتّقدُّم التّكنولوجيّ في المجتمعات الحديثة أدَّت إلى اغتراب الإنسان عن ذاته وشعوره بالتّشيّؤ، بمعنى أنَّه أصبح شيئًا من الأشياء، وتُقاس قيمته بما يُنتج من سلع وخدمات. وهنا سيطرت القِيَم المادِّيّة على القِيَم الرّوحيّة. وقد عمل «هابرماس» (Habermas)، وغيره من الفلاسفة الغربيّين، على تشخيص أدواء المجتمعات الغربيّة الحديثة التي هيمنت فيها الآلة والتّقدُّم التّكنولوجيّ على جميع مجالات الحياة الاجتماعيّة، وأصبح فيها الإنسان ذا بُعد واحد، على حدّ تعبير «ماركيوز» (Marcuse)؛ وهو البُعد المادِّيّ التّقنيّ التّكنولوجيّ. ثمّ قدَّم «هابرماس» (Habermas) حلولًا لتلك الأزمة؛ وهي نظريّته في الفعل التّواصليّ، والتي أكَّد فيها على ضرورة وجود تواصل حقيقيّ بين المشاركين في فعل التّواصل لتحقيق شعور الإنسان بالتّوافق وبالقيم الرّوحيّة، وعدم شعوره بالاغتراب عن ذاته. فالفعل التّواصليّ يُحقّق تحرير الوعي الإنسانيّ من كلّ سيطرة وهيمنة تقنيّة تُكبِّل قدراته وإمكاناته الإبداعيّة.

وعليه؛ يُمثّل الفعل التّواصليّ والكفاءة التّواصليّة والعقلانيّة التّواصليّة أُسسًا تحقّق التّفاهم والتّعاون والانسجام والتّوافق والإجماع بين أعضاء المجتمع. كما يُمثّل الفعل التّواصليّ أداة ناجعة للتّحرر من كلّ سيطرة تقنيّة أو غيرها على الإنسان.

كذلك؛ اتّفق معظم الفلاسفة الغربيّين على أنَّ الإنسان المعاصر، في ظلِّ التّقدُّم التّكنولوجيّ والتّقنيّة الحديثة، يعيش أزمة حقيقيّة بمعنى الكلمة؛ لأنَّه أصبح يشعر

1- فتحي أبو العينين، هابرماس وتحرير الوعي الاجتماعيّ، ص 72.

بالاغتراب وعدم السّعادة، وفَقَدَ كثيرًا من القِيَم الرّوحيّة، وأصبحت قيمته الحقيقيّة تُقاس بما ينتج من سلع مادّيّة وخدمات. فيما باتت قوانين العرض والطّلب، وقوانين الإنتاج متحكّمة بكلِّ شيء. ومن هنا، شعر الإنسان المعاصر، في ظلِّ تلك المدنيّة الحديثة بالاغتراب؛ بل وصل الأمر إلى شعوره بالعزلة وعدم التّكيّف مع أمور حياته اليوميّة. بناءً على ذلك؛ حاول كلّ فيلسوف، ممّن سبق الحديث عنهم، أن يُقدِّم حلولًا من وجهة نظره الشّخصيّة، للمساعدة في تجاوز الأزمة.